الفصل الرابع

فى نشأة الطرق الصوفية وتاريخها مع إلقاء الضوء على مظاهر الاختلاف بينها ونبذة عن أهم رواد وأصحاب الطرق الصوفية فى القرن السادس الهجرى

نلاحظ - من الناحية التاريخية - أن الصوفية قد أخذوا «منذ النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى، ينظمون أنفسهم طوائف وطرقًا يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذى يحقق لهم كمال العلم، وكمال العمل: فكان من هذه الطرق:السقطية نسبة إلى السرى السقطى، والطيفورية نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى، والجنيدية نسبة إلى الجنيد، والخرازية نسبة إلى أبى سعيد الخراز، والنورية نسبة إلى أبى الحسين النورى، والملامتية أو القصارية نسبة إلى حمدون القصار»[1].

ولكن هذه الطرق لم تستمر طويلاً، ومع ذلك فقد كانت اللبنة وحجر الزاوية والأساس الذى قامت عليه الطرق الصوفية فى القرنين السادس والسابع الهجريين.

وتمثل الطرق الصوفية الحركات العملية للتصوف الإسلامى، أو بمعنى أصح هى التصوف العملى الإسلامى.

ولقد كانت الطرق الصوفية فى نشأتها الأولى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، تدل على أحوال الصوفية وسلوكهم ثم أصبحت تدل فيما بعد - خصوصًا فى القرنين السادس والسابع الهجريين - على نظام من الرياضات الصوفية، تمتاز به كل طريقة، «وأصبحت لفظة طريقة» عند الصوفية المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية، ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق فى السلوك الروحى، ويحيون حياة جماعية فى الزوايا والربط والخانقاوات، أو يجتمعون اجتماعات دورية فى مناسبات معينة ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام[2].

وفى خطط العلامة على باشا مبارك يقول: «إن معظم الطرق منسوب إلى الأقطاب الأربعة: سيدى عبد القادر الجيلانى، سيدى أحمد الرفاعى، وسيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله

---

(١) الحياة الروحية فى الإسلام للدكتور مصطفى حلمى رحمه الله ص ١١٢.

(٢) المدخل إلى التصوف للدكتور أبو الوفا التفتازانى ص ٢٨٦.

تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم، لأن لكل واحد منهم طريقة واحدة مخصوصة لا غير، وإنما تعددت ونسبت لغيره، بتعدد من أخذها عنه مباشرة، أو بواسطة، فنسبت إلى الآخذ وسميت فروعًا، نظرًا لتفرعها عن الأصل، وهناك طرق أخرى غير منسوبة للأقطاب الأربعة، كالسعدية، والنقشبندية لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه - والشاذلية المنسوبة لأبى الحسن الشاذلى، كالطريقة الخلوتية والمرغينية[٣].

وإذا كان لكل طريقة نظامها وقواعدها الخاصة بها التى تتبعها، لكن الطرق جميعا تكاد تتفق كما يقول (نيكلسون) فى النقاط الآتية[٤].

١ - الاحتفال بدخول المريد فى الطريق بطقوس دقيقة مرسومة، وقد يتطلب أحيانًا من المريد قبل الدخول فى الطريق، أن يمضى وقتًا طويلًا شاقا فى الاستعداد للدخول.

٢ - التزيى بزى خاص.

٣ - اجتياز المريد مرحلة شاقة فى الخلوة والصلاة والصوم وغير ذلك من الرياضات.

٤ - الإكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والحركات البدنية المختلفة التى تساعد على الوجد والجذب.

٥ - احترام المرشد، أو شيخ الطريق إلى درجة تقرب من التقديس.

مظاهر الاختلاف بين الطرق الصوفية:

لعل أهم ما يميز كل طريقة عن الأخرى هو لون زيها وأعلامها، مثلًا علم البدوية وزيهم أحمر. والدسوقية أخضر، وكذلك الجيلانية والرفاعية أسمر، أما الشاذلية فأعلامهم مختلفة الألوان.

وإن «الخلافات التى كانت ولا تزال بين الطرق هى فى الرسوم العملية فقط، كالزى والأوراد والأحزاب التى يرددها الأتباع وما إلى ذلك، فهى أشبه شىء بمدارس تتحد غايتها فى التعليم الروحى، وتختلف وسائلها العملية فيه باختلاف المعلم الذى يجتهد فى أن يضع لتلاميذه قواعد ورسومًا خاصة، يرى أنها أفعل فى تعليمهم، والحقيقة أن الغاية القصوى من الطريق الصوفى عندهم جميعًا كانت ولا تزال تتمثل فى غاية خلقية، هى إنكار الذات والصدق فى القول والعمل»[٥].

وأهم ما يميز كل طريقة عن الأخرى هو حزبها، أو وردها الخاص بها على ما ذكرنا سابقًا.. ويقول فى ذلك الأستاذ الدكتور توفيق الطويل: «والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها - كما يقول لين - فلكل طائفة ورد، أو حزب أنشأه شيخها، وحرص عليه أتباعه فى حياته وبعد مماته، يرددونه فى الأوقات التى حددها لهم، ويتلونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم»[٦].

(٣) الخطط الجديدة لعلى باشا مبارك ص ٤٣٦، ٤٣٧ باختصار.

(٤) فى التصوف الإسلامى للأستاذ (رينولد نيكلسون) والترجمة العربية للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى رحمه الله ص ٦٤، ٦٥ باختصار.

(٥) المدخل إلى التصوف للأستاذ الدكتور التفتازانى ص ٢٨٦

(٦) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور الطويل ص ٨٠

ويرى بعض الصوفية «أن الفوارق التى تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم فى أشخاص شيوخها»(٧).

والحق أن فى اختلاف المسالك راحة للسالك على ما يقول ابن زروق فى كتابه: قواعد التصوف الذى يقول فيه: إن فى هذا الاختلاف «إعانة له - أى للمريد - على ما أراد من بلوغ الأرب، فلذلك اختلفت طرق القوم ووجوه سلوكهم، فمن ناسك يؤثر الفضائل بكل حال، ومن عابد يتمسك بصحيح الأعمال، ومن زاهد يفر من الخلائق، ومن عارف يتعلق بالحقائق، ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط، ومن متمسك يتعلق بالقوم فى كل مناط، ومن مريد يقوم بمعاملة البساط، والكل فى دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل ذميمة وشنيعة(٨)

وقد يكون فى تعدد الطرق وتنوعها واختلافها فائدة للمريد، حيث يكون أمامه فرصة عريضة لاختيار الطريقة التى توافقه وتوائم طبعه، وحين الاختيار يكون الالتزام بنهج الطريقة التى اختارها.

تاريخ التصوف والطرق الصوفية بمصر:

أول من غرس بذور التصوف فى مصر، هو «ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ؛ وكان يعد أول من تكلم من الصوفية عمومًا فى علوم المقامات والأحوال، وشاركه فى غرسها فى القرن الثالث الهجرى أيضًا، صوفيان آخران لهما مكانتهما، وهما أبو بكر الدقاق المصرى، وأبو الحسن بن بنان الحمال المتوفى سنة ٣٣٦ هـ، ومن أبرز رجالها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ؛ وأبو الخير الأقطع التينانى المتوفى سنة ٣٤٣ هـ، وأبو القاسم الصامت المتوفى سنة ٤٢٧ هـ»(٩).

وهذا التصوف العملى بصورته الجمعية «لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وقد سجل المقريزى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة»(١٠)، وهو تاريخ إنشاء أول الخانقوات فى عهد صلاح الدين الأيوبى.

ومن أهم المدارس الصوفية التى ظهرت فى مصر خلال القرن السادس الهجرى، «مدرسة صوفية كبيرة بصعيد مصر، وهى المدرسة التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ ثم قام عليها من بعده صوفى له مكانته فى عصره، وهو الشيخ أبو الحسن الصباغ المتوفى سنة ٦١٣ هـ والذى أخذ عنه كثيرون جدًا من صوفية الصعيد فى ذلك العصر، وكان القرن السابع الهجرى فى مصر عصر ازدهار تصوف أصحاب الطرق، فقد وفد إلى مصر من العراق، الشيخ أبو الفتح الواسطى، وأقام بالإسكندرية وبشر بها بالطريقة الرفاعية»(١١).

---

(٧) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور الطويل ص ٨٤

(٨) قواعد التصوف لابن زروق ص ٣٤.

(٩) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلة ٢٥ ص ٦١. بحث الدكتور التفتازانى.

(١٠) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور توفيق الطويل ص ٣٧ نقلًا عن خطط المقريزى جـ ٢٤ ص ٢٧٣.

(١١) مجلة كلية الآداب: بحث الدكتور التفتازانى ص ٦٢ مجلد ٢٥.

وأود أن أقول: إن الطريقة الرفاعية والجيلانية اللتين ظهرتا فى العراق فى القرن السادس الهجرى قد انتشرتا فى مصر فى القرن السابع الهجرى، والقرون التالية له.

وإذا كان للرفاعى والجيلانى دورهما الهام فى نشر حركة الطرق الصوفية فى كل مكان، فقد كانت هناك أيضا، شخصيات صوفية هامة لعبت دورًا كبيرًا فى الطرق الصوفية فكانت من هذه الشخصيات البارزة: أبو مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش، وأبو الفتح الواسطى، الذين ساعدوا على نشر حركة الطرق الصوفية.

وبالطبع فإنه قبل أن أشير إلى هؤلاء الصوفية الثلاثة، لابد لنا من وقفة مع الرفاعى، صاحب الطريقة الرفاعية، والجيلانى، صاحب الطريقة القادرية، لنتعرف عليهما وعلى طريقتيهما وأصولهما ومبناهما.

أولاً - أحمد الرفاعى: صاحب الطريقة الرفاعية: ٥١٢ هـ / ٥٧٨ هـ

ولد الرفاعى بقرية حسن المعروفة بأم عبيدة من أعمال واسط، بالعراق، سنة ٥١٢ هـ ومات سنة ٥٧٨ هـ ودفن فى أم عبيدة فى قبته المشهورة.. وسيدى أحمد الرفاعى نسبة إلى جده السابع رفاعة واسمه الحسن، وكان قد هاجر من مكة لما كثر الجور على الشرفاء، ونزل بالمغرب، وأقام فى قبيلة من العرب، وظل نسله فى المغرب إلى أن هاجر أحد أحفاده - وهو السيد أبو الحسن والد الامام الرفاعى الكبير رضى الله عنه[١٢].

وخلف الرفاعى خاله الصوفى الكبير، الشيخ منصور البطائحى الربانى وأصبح للرفاعى أتباع كثيرون وأصبحت أم عبيدة مركزًا كبيرًا للطريقة الرفاعية.

وقد سمى الرفاعى «شيخ الطائفة البطائحية[١٣] وذلك لسكناه أم عبيدة من قرى البطائح، وهى بين البصرة وواسط[١٤].

وقد كان رضى الله عنه متبعا للقرآن والسُنة، وتميزت شخصيته بالتواضع ودعوته للعمل، والتوكل على الله، وكان سمحًا، محبًّا للإنسان والإنسانية جمعاء.

فمثلا مما يدل على دعوته القوية لاتباع القرآن والسنة قوله فى كتابه البرهان المؤيد: أى سادة: كونوا مع الشرع فى آدابكم كلها ظاهرًا وباطنًا، أى سادة: منكم فقهاء وعلماء أيضا، ولكم مجالس وعظ، ودروس، تقرءونها، وأحكام شرعية تذكرونها وتعلمونها الناس.. بذلت نفسى، ولم أسلك طريقا

---

(١٢) الرفاعى للاستاذ الدكتور وصفى ص ٣٢.

(١٣) الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى للدكتور الشيبى ص ٣٢٢.

(١٤) نقلها الدكتور الشيبى عن البداية والنهاية لياقوت جـ ١٢ ص ٣١٢.
وكتاب الدكتور الشيبى ص ٣٢٢.

إلا سلكته وعرفت حصته بصدق النية، والمجاهدة، فلم أجد أقرب وأوضح وأحب من العمل بالسنة المحمدية، والتخلق بخلق أهل الذل والانكسار والافتقار(١٥).

وفى نص رائع يقول: أى سادة: عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأولياء والعرفاء، فإن الطريق واحد، وهؤلاء وراث ظاهر الشريعة، وحملة أحكامها الذين يعلمونها الناس، وبها يصل الواصلون إلى الله، إذ لا فائدة بالسعى والعمل على الطريق المغاير للشرع، ولو عبد الله العابد خمسمائة عام بطريقة غير شرعية، فعبادته راجعة إليه، ووزره عليه، ولا يقيم له الله يوم القيامة وزنا، وركعتان من فقيه فى دينه أفضل عند الله من ألفى ركعة من فقير جاهل فى دينه، فإياكم وإهمال حقوق العلماء، وعليكم بحسن الظن فيهم جميعًا، وأما أهل التقوى منهم العاملون بما علمهم الله فهم الأولياء على الحقيقة، فلتكن حرمتهم عندكم محفوظة(١٦).

من هذا يتضح لنا كيف كان الرفاعى متصوفًا سنيًا متشرِّعًا متحققًا لدرجة أنه كان يقول: «كل الآداب منحصرة فى متابعة النبى ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً وخلقا » فالصوفى آدابه تدل على مُقامه. زنوا أقواله وأفعاله وأخلاقه بميزان الشرع يعلم لديكم ثقل ميزانه وخفته»(١٧).

وكثيرا ما نصح أتباعه بقوله: «أى سادة: إياكم والدجالة، إياكم والشيطانية. إياكم والطرق التى تقود إلى كلا الوصفين(١٨).

ومن المعروف أن الصوفية أرباب أحوال، وقد يشطح بعضهم لشدة حاله «إلا الرفاعى رضى الله عنه وأرضاه، كان لشدة أدبه مع الله شديد التحكم فى نفسه، فلم يدلف أبدا أو يشطح فى كلامه، بل إن الإمام نقد الشاطحين أشد النقد ولم يقر الحلاج على قوله: «أنا الحق، أو ما فى الجبة غير الله، ونفى عنه الوصول»(١٩).

لقد كان الرفاعى حقا متمسكًا بالشريعة الغراء، داعيًا أتباعه إلى التمسك بها والسير على هداها.. وهذا ينفى بالطبع تلك الفكرة الخاطئة، التى تعتبر أن فى اتباع الطرق الصوفية خروجا عن الأصول الشرعية لديننا الحنيف، فقد وجدنا التساوق فى دعوة الرفاعى لأتباعه المتصوفة فى التفقه فى الشريعة تفقههم فى الحقيقة، وفى دعوته لأتباعه إلى تعظيم وتقدير الفقهاء والعلماء كتقديرهم للأولياء، فإن الطريق واحد.

وكما كان الرفاعى داعيًا إلى اتباع الشريعة والعمل بالقرآن والسنة فقد تميزت هذه الشخصية الداعية إلى طريق الله بتواضع جم، وبساطة شديدة، يقول فى برهانه المؤيد: «ما دخل ساحة القرب من استصغر الناس واستعظم نفسه، من أنا، ومن أنت، أنا لست بشيخ، لست بمقدم على هذا الجمع،

---

(١٥) البرهان المؤيد للرفاعى: تحقيق صفوة السقا من صفحة ٥٤ إلى ٦١.

(١٦، ١٧، ١٨) البرهان المؤيد للرفاعى: تحقيق صفوة السقا من ص ٥٤ إلى ص ٦١.

(١٩) الرفاعى للدكتور وصفى ص ٥٩.

لست بواعظ، لست بمعلم، حشرت مع فرعون وهامان إن خطر لى أنى شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدنى الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين»[٢٠].

ويصل به التواضع الأصيل لأن يقول: «كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خير منى أنا أحيمد اللاشن، أنا لاشن اللاشن»[٢١].

يقصد أنه العبد المتواضع.

وإذا انتقلنا إلى مفتاح آخر من مفاتيح هذه الشخصية الصوفية المشرقة، نجده داعية لله والعرق والكسب الحلال، وهذا ينفى أن الطرق الصوفية دعوة للسلبية والكسل.

لقد كان الرفاعى يعمل بالاحتطاب، وأعمال أخرى متنوعة «حتى يضمن لقمة العيش التى تمكنه من عدم الاعتماد على أحد، وكان يشرط على كل من يستمع إلى درسه، أن يكون له عمل، فإن لم يكن، فليبحث، فإن عجز هيأ هو له أى حرفة يقتات منها، وإلا فلا يسلك فى طريقته.. إذ لا ينضم فى صفوفنا عاطل»[٢٢].

والرفاعى يعلنها صريحة قوية، طريقى: دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة.

وكان من أبرز مفاتيح تلك الشخصية العظيمة: الحب، «فقد كان شعار حياته هو الحب، الحب الذى يملأ قلبه وروحه ووجدانه وآفاق حياته، وكان فانيًا فى محبته لله، ومن هذا الحب انبثق حبه للناس جميعًا، بل حبه لكل حى، من إنسان وحيوان ونبات، بل حبه للكون كله، لأن الكون لدى المتصوفة ليس جمادًا أو ليس مادة، بل هو كائن حى مدرك له إحساسه وشعوره وإيمانه وتسبيحه»[٢٣].

حقيقة أن من أشرق ما فى الإمام أحمد الرفاعى، حبه للناس جميعًا «وهو إلى جانب مسئولياته الثقافية والتعليمية، كان يبحث عن أتباعه ومريديه – واليتامى أبناء المسلمين، فإذا كان بأى واحد منهم حاجة، سعى إلى قضائها حتى ولو كان فى حاجة إلى توصيل المياه إلى منزله حملها هو له، وفى ذلك يقول رضى الله عنه عندما طلب منه يوما أن يجلس فى المسجد، وفى داره، معلمًا.. فقيها.. وأن يقوم غيره بما يفعل فأجاب: «إن تجارتى خدمة النساء والأرامل واليتامى، وأحب أن أشهد نفسى فى خدمتهم دائما، وإذا رأيت يتيما يبكى تهتز مفاصلى، وترتعد أعضائى، حنانًا له وشفقةً عليه وأخاف منه بكاءه»[٢٤].

يقول عنه الشعرانى: «وكان إذا سمع بمريض فى قرية ولو على بعد، يمضى إليه يعوده ويرجع بعد يوم أو يومين، وكان يخرج بالطريق ينتظر العميان حتى إذا جاءوا يأخذ بأيديهم ويقودهم، وكان إذا رأى

---

(٢٠) البرهان المؤيد: الطبعة المحققة بواسطة الأستاذ صلاح عزام ص ٢٥، ٢٧.
(٢١) المصدر السابق: الطبعة المحققة بواسطة صفوة السقا ص ٢٤.
(٢٢) الاقطاب الثلاثة للاستاذ صلاح عزام ص ٢٥.
(٢٣) نشرة مشيخة عموم الطرق الصوفية: التصوف الاسلامى ص ١٨.
(٢٤) الأقطاب الثلاثة للأستاذ صلاح عزام ص ٣٢.

شيخا كبيرًا، يذهب إلى أهل حارته ويوصيهم عليه، وكان رضى الله عنه لا يجازى قط السيئة بالسيئة»[٢٥].

هذا هو الطريق الحق كما رسمه الرفاعى، بل كان الرفاعى. رعاية كاملة لحقوق الله، والعمل بشريعته السمحاء، عمل وجهاد فى الحياة، تواضع وحب للبشر جميعا.

الرفاعى وتأثير الرفاعية فى الثعابين والحيوانات.

عرف الرفاعى بحنانه الشديد على الإنسان والحيوان.. وكان أشد ما يكون حدبًا ورعايةً وحنانًا على الحيوانات الضالة والمريضة.

فشدة الحدب ورقة القلب «هما من أميز خصائص الرفاعى، ومن هذه الصفة استمد كراماته المتعلقة بإخضاع الحيوان والتأثير فيه»[٢٦].

ويقول الدكتور وصفى: «أما ما يأتيه أبناء الطريق فى هذا السبيل فهو من مدد شيخهم، وذلك مع الإخلاص ونقاء السريرة، وهو يكون بقدر الاعتقاد فى الشيخ واستجلاء همته، والسبب فى ذلك: أن المريد يتطبع بطابع النقاء الشديد والصفاء الذى تكسبه إياه الطريقة الرفاعية، والقوة الروحانية، التى يكتسبها من رياضاتها إلا أنه يجب الاحتراس فى ذلك، لأن هذه الخوارق قد تترتب على تدخل شيطانى لينصرف السالك عن همته إلى اللهو»[٢٧].

ويحذرنا من ذلك فيقول: «ولذلك يحرم على المريد تجريب نفسه فى ذلك، أو الاسترسال فيه، وكل ما يطلب منه أن يكون موفقا من أن عزم شيخه، وحضور همته، سيجعله آمنا من ضرر الأفاعى ونحوها، وذلك إذا دعت الضرورة. وبقدر هذه الثقة تكون النتيجة بإذن الله.

وليس لهذه الخاصية استعداد معين سوى شدة الإخلاص والنقاء، فليس لها «شربة» كما يزعم بعض أهل البدع أو أدعية خاصة، ولا عزائم خاصة، فكل ذلك بدع محرمة شرعًا، ولهذا فإن المشيخة تحارب هذه الأمور منعًا من انشغال أبناء الطريق عن الله، حتى لقد تبرأ الإمام ممن يلعب بالأفاعى ونحوها»[٢٨]

ويقول لين: «إن الفعال العجيبة التى تنسب إلى الرفاعية كجلوسهم فى الأفران المتأججة وركوبهم الأسد وغير ذلك[٢٩]، لم تكن معروفة لدى منشىء هذه الطريقة، وقد استحدثت بعد الغزو المغولى، ومهما يكن من شىء فإن هذه الفعال لم تكن من بدع الرفاعى، لأن التنوخى الذى عاش فى القرن لرابع الهجرى ذكر فعالا شبيهة بها»[٣٠].

---

(٢٥) طبقات الشعرانى ص ١٢٣.

(٢٦، ٢٧، ٢٨) كتاب الرفاعى للأستاذ الدكتور وصفى ص ٣٢، ٤٣.

(٢٩) وصف هذه الفعال فى كتابه:

An account of the manners and customs of Egyptians. London 871

(٣٠) دائرة المعارف الإسلامية ص ١٤٨.

ويرى البعض أن أفراد هذه الطريقة يعمدون إلى «طعن أنفسهم بالمدى، وأكل النار، وازدراد الأفاعى، وغير ذلك من الأمور العجيبة التى يفسرون قدرتهم على فعلها بأن النفس وقد ملك عليها ذكر الله كل سبيل تصبح فى حالة غيبة تفارق فيها البدن، وتصعد إلى الملأ الأعلى، حيث تتصل ببارئها، ويصير البدن كأنه خلو من الحياة، فلا يحس ما يولده أكل النار وازدراد الأفاعى والطعن بالمدى من الآلام»(٣١).

ومن قبل أوردنا، رأى أحد أبناء الطريقة الرفاعية، الدكتوز وصفى فى ذلك حين ذكر أنه ليس لهذه الخاصة استعداد خاص سوى الإخلاص، والطهر، ثم أن الامام الرفاعى نفسه يبرأ ممن يتكسب من لعب الأفاعى واحترافه.

أصول الطريقة الرفاعية وكيفية الانتساب والدخول فيها:

تقوم الطريقة الرفاعية أولا: «على القول بصحة رواية الخرقة من جهة، وأن الشياخة فيها، أو القطبانية، إنما تؤخذ بالعهد والاستخفاف، من شيخ عن شيخ على غرار الطريقة البرهانية والسطوحية، ثم أنها تتفق فى الجانب العملى منها على ظاهر الكتاب والسنة.. أضف إلى ذلك اصطناع الخلوات والإكثار من الأدعية والأذكار وقراءة الأحزاب والأوراد»(٣٢).

وقد رسم الإمام الرفاعى لمريديه معالم الطريق للدخول «فقسم المريدين إلى مجموعات، على كل مجموعة شيخ يقوم بتعليمهم معالم الطريق، ويسمى أيضا الخليفة، ولكل مجموعة من المشايخ شيخ مشايخ، أو ما يسمى خليفة الخلفاء.

وعلى المريد حتى يسير على نهج الرفاعى أن يتبع تعاليمه ويعمل بما قاله الإمام الرفاعى «أى يا سادة أعينونى على أنفسكم بخمس خصال:

الأولى: سنة الرسول..
والثانية: موافقة السلف على حالهم..
والثالثة: لباس ثوب التعرية من الدنيا والنفس.
والرابعة: تحمل البلاء والاستسلام له.
والخامسة: لباس الوقار واجتناب الجفاء.. وعليك بلباس الرقعة فإنها لباس الذل والانكسار والتواضع»(٣٣).

وكان الرفاعى ينصح أتباعه دائما بقوله لهم كونوا مواظبين على الصلاة المفروضة،وابعدوا عن الحرام! وراعوا الآداب على مقتضى آداب الخالق، وامشوا على منهج الحق والطريق المستقيم، وتقيدوا

---

(٣١) الحياة الروحية فى الإسلام للأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى ص ١٥٩.
(٣٢) كتاب الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للأستاذ الدكتور على صافى حسين ص ٢٨
(٣٣) كتاب الأقطاب الأربعة ص ٢٨ للاستاذ صلاح عزام.

بخدمة الفقراء إخوانكم والضيوف والغرباء والمساكين.. وعليكم بالأذان حسبة، فإن للمؤذنين درجة عالية عند الله»(٣٤).

وكما ذكرنا من قبل أن الطريقة الرفاعية انتشرت فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وذلك حين وفد إليها أبو الفتح الواسطى فى مستهل القرن السابع وأقام بالإسكندرية وبشر بها.

والطريقة ليست وراثة ولا حرفة كما يقول الرفاعى فى برهانه المؤيد: «أى حبيبى، تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك، تسلسل من جدك، تأتيك باسم بكر وعمر، وتصر لك فى وثيقة نسبك، تنقش لك على جيب خرقتك، على طرف تاجك، حسبت هذه البضاعة ثوب شعر؟ وتاجًا وعكازًا وعمامةً كبيرةً؟ وزيا صالحًا، لا، والله. إن الله لا ينظر إلى كل هذا، ينظر إلى قلبك كيف يفرغ فيه سره، وبركة قربه، وهو غافل عنه بحجاب التاج، بحجاب التمكين، بحجاب الخرقة، بحجاب السبحة، بحجاب العصا، بحجاب المسوح، ايش هذا العقل الخالى من نور المعرفة، ايش هذا الرأس الخالى من جوهر العقل، ما عملت بأعمال الطائفة وتلبس لباسهم يا مسكين»(٣٥).

ولقد بنى الرفاعى طريقته «على الأدب والتمكين والسكينة والتواضع والذل والانكسار والرفق بالخلق، والازدراء بالنفس، وعدم الاعتراف لها بمقام، والتجرد من الدنيا وهى مقبلة عليه»(٣٦).

والطريقة الرفاعية «مبنية على الجهر بالذكر كالقادرية..، وقد غلب على الكثيرين من المنتسبين إلى هذه الخرقة التواجد عند السماع، والغيبوبة عند الذكر، وغلبة الأحوال عليهم»(٣٧).

طريقة الانتساب والدخول فى الطريقة الرفاعية(٣٨):

أول الطريق، التوبة، وهذا لا يمنع من تكرار التوبة على طول الطريق، يقول الإمام الرفاعى رضى الله عنه: كلما جدَّد الفقير توبته فذلك لطف وإنعام يجود الكريم به.

والبيعة فى الطريقة الرفاعية تكون بأمر المرشد للمريد، بوضوء جديد، وبصلاة ركعتين بنية التوبة، ثم يجلس المرشد على السجادة، ويجلس المريد مقابلا له بالأدب والخضوع، لاصقا ركبتيه بركبتى المرشد مطرقا خاضعا لله تعالى حتى يتجرد من وساوس النفس ودسائس الشيطان، وعند ذلك يقرأ المرشد ثلاث فواتح سرا، ثم يقرأ الاستعاذة، وآية المبايعة ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق ايديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهدعليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما**﴾* ثم يقرأ ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله**

(٣٤) المرجع السابق نفسه.

(٣٥) البرهان المؤيد للرفاعى: تحقيق صلاح عزام ص ٣٦.

(٣٦) كتاب أبو الحسن الشاذلى جـ ١ لعلى سالم عمار ص ١٢٩.

(٣٧) مخطوط سلسبيل الطرائق للإدريسى ص ١٧.

(٣٨) اعتمدنا فى كتابة مادة هذه الفقرة على كتاب «المعارف المحمدية فى الوظائف الأحمدية» للسيد عز الدين أحمد الصيادى الرفاعى من صفحة ١٢٠ إلى ١٤٧ وكتاب «الإمام الرفاعى» للأستاذ الدكتور مصطفى وصفى ص ٨٤ إلى ٩٦.

* سورة الفتح آية ١٠.

يعلم ما تفعلون﴾* ثم يقول: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه من جميع الذنوب «ثلاثا».

ويتابعه المريد سرا بالاستغفار، ثم يمسك بيده اليمنى يد المريد ويلقنه الذكر وهو القول: لا إله إلا الله «ثلاثا»، فيقول المرشد ويردد المريد، ثم يلقنه العهد وهو: أشهد الله وملائكته ورسله وأنبياءه والحاضرين من خلقه أنى تائب الى الله مجتنب لمحارمه، مجتهد فى طاعته، منيب إليه، مواظب على خدمة الفقراء بحسب الطاقة، وأن الطاعة تجمعنا، والمعصية تحول بيننا، والعهد عهد الله ورسوله، وأن اليد يد أحمد الرفاعى، وهو شيخنا فى الدنيا والآخرة، والله على ما نقول وكيل». ثم يقول المرشد مخصصا نفسه: «العهد عهد الله، واليد يد الله، والبيعة بيعة رسول الله، والهدية هدية الشيخ الأعظم، قدوة الأولياء، شيخ مشايخ العرب والعجم، قطب الاقطاب، سلطان العارفين، شيخنا الشيخ أحمد الرفاعى الكبير قدس الله أسراره العليا «ثم يقرأ الفاتحة، ويقرأ ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**. وقال بعض السادة الرفاعية: ثم يقول المرشد للمريد قم مريدًا بالطريقة الرفاعية ويقرءون الفاتحة لأهل العهد.

والانتساب إلى الطريق على وجهين: إما انتساب بركة، أو انتساب إرادة.

وانتساب البركة، هو أن يلتمس المريد من الشيخ وأهل الطريق البركة دون أن يلزم نفسه بالرياضات... أما انتساب الإرادة فهو يكون للسالك لأصول الطريق حسب رياضاته، وهو الذى يناط به الارتقاء فى مدارجه حسب التفصيل الآتى:

مدارج الطريق حسب الترتيب الحالى هى: المريد ، فالخليفة، فخليفة الخلفاء ، فالنيابة الكبيرة. وهذه المدارج إدارية بحتة.

أما المدارج الروحية فتسمى أسماء أخرى، فهى تبدأ بالمريد، ثم المقدم أو الجاويش، ثم النقيب، وهى نهاية الدرجات الروحية، وللانتقال من درجة إلى أخرى رياضة مخصوصة بها.

ولما كانت أسباب البلاء كله فى زلات اللسان من الغيبة، والنميمة، والسباب، فإن الطريق قد عنى بأن يشغل المريد عن ذلك بالذكر ويفرض خلوات دورية تطهر قلب المريد، وتعيد إليه الصفاء.

وفى مبدأ التحاق المريد بالطريقة المباركة، يكلفه المرشد ذكرا باسم «لا إله إلا الله» حسب طاقته، أى بأكثر ما يمكنه، وما تتحمله نفسه، وكذلك الصلاة على حضرة الرسول بأبسط صيغة كقول: صلى الله عليه وسلم، حسب طاقته أيضا، وبحيث يشغل سائر أوقاته بهذا الذكر، وبهذه الصلاة ما استطاع، ويقوم المريد أيضا «بخلوة المحرم» التى سيرد ذكرها، وهى لازمة لأبناء الطريق، على اختلاف درجاتهم، وذلك فى أوانها، كما يقوم بالرواتب بعد كل صلاة، وبعد ذلك يربط له عددًا معينا من ذكر (لا إله إلا الله) حسب حالته، وبدون أن يشق عليه مع استمراره على الرواتب بعد كل صلاة.

---

* سورة النحل آية ٩١.

** سورة إبراهيم آية ٢٧.

وهذا الذكر، قد يكون خمسين بعد كل صلاة، ويصل فى المتوسط إلى خمسمائة، وقد يصل إلى ألفين وخمسمائة، بل ويجوز أن يكون لأكثر من ذلك، إذا لم يكن فيه ما يعطل سعيه للدنيا.. وإذا كانت حالته تستلزم كثرة الذكر، وهو بعد ذلك يداوم على الصلاة على حضرة الرسول ﷺ فى سائر أوقاته حسب طاقته، فإذا لمس من المريد إخلاصا نقله إلى الذكر باسم «الله»، وأقل العمل بها كما جاء فى قلادة الجواهر «ألفان وخمسمائة» بعد كل صلاة من الصلوات الخمس لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، ويجب على الشيخ أن يترفق بمريده، إذا استدعت ظروفه ذلك

ومن الرواتب أيضا الصلاة على حضرة الرسول ﷺ بدون عدد مرسوم بصفة مطلقة بسيطة، أو بعدد مرسوم بعد كل صلاة: خمسين وهو أقل العمل بصيغة من الصيغ الرفاعية المذكورة بعد.

ويستمر على ذلك مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، وعند ذلك يجوز أن يتقدم المريد إلى رتبة الجاويش، أو المقدم، ويكون ذلك بعد اجتياز خلواتها، وهذه الخلوات أربع :

الأولى: ثلاثة أيام والابتداء فيها يكون يوم الأحد.
والثانية: ثلاثة أيام والابتداء فيها يكون يوم الاثنين.
والثالثة: أربعة أيام والابتداء فيها يكون يوم الثلاثاء.
والرابعة: خمسة أيام والابتداء فيها يكون يوم الأربعاء.

ويفصل بين كل منها عشرة أيام.

وشرط الأكل فيها، ألا يأكل المتريض إلا فى الصباح والمغرب، ولا يزيد فيها على ما يسد الرمق، وبشرط ألا يدخل طعامه شيئا ذا روح، وأن يكون المتريض محجوبا، عن الناس تماما، فى مكان مخصوص طاهر، لا يدخله أحد ولا يدخله عياله، وإذا خرج لقضاء حاجة فليخرج تحت ستر من غير انحراف إلى طريق آخر، وأن يشتغل بالذكر المربوط للرياضة الأولى، وهى (يا حميد) بعدد، أقله ثلاثة آلاف مرة، عقب كل صلاة مع آداب الذكر، وعليه أن يتهجد بالليل باثنتى عشرة ركعة، وأقل العمل أربع ركعات، وبعد كل فريضة يصلى على حضرة النبى ﷺ ثلاثًا وعشرين مرة ويختم بالفاتحة، وذلك مع إتقان الوضوء والصلاة والسنن غاية الإتقان، وفى الرياضة الثانية يكون ذكره (يا رحيم) أقله أربعة آلاف مرة مع ما تقدم وفى الرياضة الثالثة (يا وهاب) أقله خمسة آلاف مرة.

والذكر المربوط للرياضة الرابعة بعد كل صلاة «يا قدوس» أقله ستة آلاف مرة.

وبعد خروجه من الرياضة الرابعة يكون ذكره «ذو الجلال والإكرام» كل يوم ألف مرة، ويبقى على هذه الحالة إلى أن تصدر للمرشد إشارة بأن يعينه فى المرتبة التالية، وهى مرتبة النقيب.

والرياضات المربوطة للسالك بعد دخوله هذه الرتبة خمس:

الأولى: أربعة أيام والابتداء يوم الخميس.
والثانية: خمسة أيام والابتداء يوم الجمعة بعد الصلاة.

والثالثة: ستة أيام والابتداء يوم السبت.
والرابعة: سبعة أيام والابتداء يوم الأحد.
والخامسة: ثمانية أيام والابتداء يوم الاثنين.

ويفضل أن يكون بين كل منها خمسة أيام.

والطعام المعين للسالك فى تلك الرياضات الخمس خبز الشعير، والملح، والزيت بحسب طاقته من القلة.

ويكون الطعام المذكور صباحا ومساء موزونا بقدر واحد.

والأسماء التى تقرأ فى هذه الرياضات هى:

فى الأولى: (يا حق) أربعة آلاف مرة.
وفى الثانية: (يا حنان) خمسة آلاف.
وفى الثالثة: (يا حليم) ستة آلاف.
وفى الرابعة: (يا حى) سبعة آلاف.
وفى الخامسة: (يا حافظ) ثمانية آلاف.

فإذا أتم السالك هذه الرياضات الخمس أمره المرشد بذكر الاستغاثة وهى «سبحانك لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» فى كل يوم بعد كل صلاة خمسمائة مرة.

ويبقى على هذه الحالة إلى أن تصدر إشارة للمرشد من طرف السلسلة الرفاعية المباركة، بتقريب السالك، فيدخله المرشد فى خلوة التهذيب، وهى واحد وأربعون يوما، وشروطها: صيام الأيام المذكورة، ويكون الفطور والسحور فيها على خبز الشعير، وماء السكر، واللوز، أو الفول السودانى، بوزن واحد، ويكون فى الليل بعد قراءة الورد، وذكر العشاء، أقله ساعتان وأكثره أربع ثم يظل متهجدا حتى الفجر، ويذكر الله، ويصلى الصبح، ويبدأ بالورد الشريف، والاسم المربوط لهذه الخلوة، هو «يا حميد» فى اليوم والليلة الأولى ألف مرة، وفى كل يوم يزيد الذكر ألف مرة، إلى ختام الليلة الأخيرة، فيكون واحدًا وأربعين ألف مرة.

وبعد خروجه يأمره بذكر مناجاة الطالبين، وهو: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا» بعد كل صلاة خمسمائة وسبعة وخمسين مرة، ويبقى على هذه الحالة إلى أن تظهر للمرشد إشارة من طرف السلسلة الرفاعية المباركة فيرقيه إلى الرتبة التالية، وهى رتبة الخليفة: وهى تجيز إعطاء العهد الرفاعى الكريم.

والورد المربوط لهذه الدرجة هو سورة الاخلاص، كل يوم مائة مرة، وسورة سبح اسم ربك الأعلى سبع مرات، والصلوات على حضرة النبى ﷺ مائة مرة، (ولا إله إلا الله) مائة مرة، والحزب أو الورد الذى تحصل فيه الرخصة من جانب المرشد من أحزاب حضرة الإمام الكبير، ويقول فى ليلة الجمعة على الخصوص منفردا «أستغفر الله العظيم» مائة مرة، والصلاة على سيدنا محمد بصيغة «اللهم صل

على سيدنا محمد النبى الأمى الطاهر الزكى صلاة تحل بها العقد، وتفك بها الكرب، وعلى آله وصحبه وسلم» مائة مرة، وسورة الفاتحة سبع مرات، وذلك مع قراءة فاتحة للرابطة الرفاعية المباركة.

وعلى صاحب هذه الرتبة «الخليفة»، حتما خلوة سبعة أيام كل سنة، وابتداء الدخول فيها من اليوم التالى لعاشوراء، ويكون الطعام فيها خاليا من كل ذى روح والذكر فيها:

اليوم الأول: «لا إله إلا الله» ثلاثة عشر ألف مرة، وعلى رأس كل مائة هذا الدعاء المبارك، اللهم اغرس فى قلبى شجرة (لا إله إلا الله) وأظهر على لسانى ينابيع حكمة (لا إله إلا الله)، واحفظنى يارب من كل شك، وكفر ورياء ومن مكر الماكرين وحسد الحاسدين، وعداوة المعادين، ومن شر نفسى، وشيطانى، وهواى بعناية ووقاية (لا إله إلا الله).

وذكر اليوم الثانى: «الله»، سبعة وعشرون ألف مرة.، والدعاء «اللهم اسقنى من خمر المشاهدة، وأغرقنى فى بحر المراقبة، وفهمنى دقائق المعرفة، وحقائق الحقيقة لأكون منك خائفا وبك عارفا».

وذكر اليوم الثالث: «وهاب» اثنان وثلاثون ألف مرة، ودعاؤه اللهم ارزقنى مواهبك الربانية موهبة أطلع ببركتها على مخفيات الرموز ومعميات الكنوز تجلى عين بصيرتى بكحل موهبتك يا وهاب.

وذكر اليوم الرابع: «حى» خمسة وثلاثون ألف مرة «ودعاؤه» «اللهم أحينى حياة طيبة أذوق بها حياة الحب، وطعم شراب القرب، فأكون بك حيا ولك وليا فأموت بك تقيا. وأحيا بك مرضيا. يا حى».

وذكر اليوم الخامس: «مجيد» ثمانية وثلاثون ألف مرة، ودعاؤه «اللهم مجد قدرى بحبك، وشرف مرتبتى بقربك، حتى أكون بحبك ممجدا وبقربك مؤيدا. وأطلع على دقائق المجد، ورقائق المدد والمجد، وألبس من تيجان المجد والسعد بفضل براهين مجدك يامجيد.

وذكر اليوم السادس: «معطى» أربعون ألف، وثلثمائة مرة. ودعاؤه اللهم أعطنى من فضلك عطاء وفيا أتقرب بسببه لأبواب محبتك، وأكون من أهل حضرتك، وأشاهد أسرارك القدسية فأفوز بعطية جودك الوفية «يا معطى».

وذكر اليوم السابع: «قدوس» خمسة وأربعون ألف مرة، ودعاؤه «اللهم قدس سرى، وروحى بسر سرك وبروح روحك، وأوصلنى لمنازل الأنس، واسقنى من مشارب القدس، فيكون سرى بك مقدسًا مطهرًا من كل عيب ودنس عرض، أو وهمى بثبوتى، أو خاطرى ببركة قدسك يا قدوس».

خلوة السبعة «المحرم»:

وإلى جانب هذه الخلوات المخصوصة بمختلف الدرجات، على كل الإخوان فى الطريق الرفاعى، وكل من أخذ العهد، أن يقوم بخلوة سبعة أيام، ابتداء من اليوم التالى من عاشوراء، وهى حتم لازما. باتفاق جميع المراجع مع كل من أخذ الطريق الرفاعية، والتمس لأهلها من المريدين والإخوان، وشروطها صيام السبعة الأيام المذكورة، وأن يكون الصائم على وضوء دائم، ولا ينام فى تلك الأيام

السبعة مع عياله بفراش قطعا، ولا يأكل من ذى روح، وأن يحفظ لسانه من التكلم بكلام الدنيا، وأن يربط قلبه فى الله بسائر أوقاته وخلواته مع استحضار همة المرشد.

والذكر المربوط للإخوان بهذه الخلوة هو «يا وهاب» مائة مرة بعد كل صلاة ثم مائة مرة «اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى الطاهر الزكى، وعلى آله وصحبه وسلم، «مع الفاتحة عند البدء والختام لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولصاحب الطريق - رضى الله عنه - والسلسلة الرفاعية المباركة ولشيخه ولإخوانه المسلمين أجمعين.

وقد قال الإمام الرفاعى: «إن خلوة السبعة سبب الفيض للسالك، والمريد الصادق فى كل سنة، من جهة السلسلة الرفاعية.. ومن لم يستطع أن يقوم بالخلوة على وجه الكمال، فلا أقل من أن يقوم بسائر شروطها، ويستعيض عن البعد عن الناس بحفظ لسانه وقلبه.

ولعل هناك اشتراكا فى خلوة السبعة أيام (المحرم) عند الرفاعية، وعند الشيعة، فإذا كانت الخلوة المحرمية تعنى، أن على الرفاعى أن يعتكف سبعة أيام، أولها الحادى عشر من شهر المحرم، فإن الحادى عشر من محرم الحرام هو اليوم الثانى، لقتل الشهيد الإمام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، (فهذه الأيام السبعة التى يقضيها المريد الرفاعى، تعنى إظهار الحزن الشديد على الحسين، كما يفعل الشيعة على صورة فيها مبالغة فى الحزن، ولكن تقادم العهد أنسى أصحاب الطريقة وغيرهم دلالات مراسمها، فلم يلتفتوا إلى الممرات السرية التى تصلهم بالتشيع[٣٩].

وأنا لا أريد أن أرد أصول الطرق الصوفية إلى التشيع كما يحاول الأستاذ الدكتور الشيبى.. وإنما أردد ما قلته من قبل.. إنه قد يكون هناك اشتراك بين الطرق الصوفية وبين الشيعة فى ظاهرة ما.. ومن المبالغة أن نرد كل اشتراك فى ظاهرة إلى تأثير إحداهما فى الأخرى، فهنا يظهر تعصب الباحث لمذهبه سواء كان شيعيًّا أو سنيًّا أو صوفيًّا.

وبعد.. فهذه هى سائر خطوات التدرج فى الطريق، وخلوته الشهيرة عقب عاشوراء.. أما سائر الرياضات فهى: الذكر، والصلاة على الرسول الكريم، وتلاوة الأدعية، وآيات القرآن الكريم، والأحزاب، والأوراد.

وفى النهاية ينبغى أن نشير إلى أن الإمام أحمد الرفاعى لم يقيد أصحابه وأتباعه بزى مخصوص، ولا بلباس مخصوص، بل أباح لهم ما أباحه لهم الشرع. ولم يخصص إلا العمامة السوداء، وقد خصص الزى الأسود لنفسه الطاهرة وأتباعه تخصيص إطلاق بلا قيد، يقول الرفاعى: إن أصول طريقتنا لا تمنع من حسن الزى والمظهر، لتنعم، لأن ذلك أوجب للشكر، وإنما الفقر والزهد محلهما القلب فلا بأس على الفقير، أن يتخذ أسباب النعمة ما دام قلبه غير متعلق بها.

أما ثياب الإمام الرفاعى نفسه فمن المعروف أنها كانت قصارا،كمه لا يبلغ قبضته. ولم يلبس ثوبا جديدا قط خشية العجب، وكان يفضل المرقعة. وكانت ثيابه كذلك غالبا.

---

(٣٩) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور الشيبى ص ٤٤٨.

هذه هى الطريقة الرفاعية فى أصولها التى لا تبتعد عن الإسلام.

وإذا كان بعض الأتباع قد حاولوا أن يشوهوا الصورة للطريقة الرفاعية فجعلوها شعوذة ودجالة ولعبا بالأفاعى والسيخ، فلا ننسَ أن الرفاعى نفسه يبرأ من هؤلاء جميعًا، فقد قال لمثل هؤلاء القوم من قبل: إياكم والدجالية.. إياكم والشيطانية.. إياكم والطرق التى تقود إلى كلا الوصفين.

ثانيا - عبد القادر الجيلانى صاحب الطبقة القادرية «الجيلانية».

إلى جانب الطريقة الرفاعية العراقية الأصل، ظهرت الطريقة القادرية العراقية الأصل أيضا، مواكبة ومعاصرة لها فى قرن واحد من الزمان - وانتقلت من فرات ودجلة العراق إلى أرض مصر، فى القرن السابع الهجرى قرن الطرق الصوفية بحق.

وفى البداية نتعرف على الجيلانى:

يقول عنه صاحب قلائد الجواهر هو «محيى الدين أبو محمد عبد القادر بن أبى صالح جنكى دوست موسى، بن أبى عبد الله يحيى الزاهد، بن محمد، بن داود بن موسى، بن عبد الله، بن موسى الجون عبد المحصن، بن الحسن، بن على، بن أبى طالب رضى الله عنه[٤٠].

ويتابع الشيخ التادفى فى كلامه فيقول: «قال سيدنا الشيخ عبد المطلب بن الشيخ عبد القادر الجيلانى، كان والدى يتكلم فى الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة، بكرة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم، ومدة كلامه على الناس أربعون سنة، أولها سنة ٥٢١ هـ. وآخرها سنة ٥٦١ هـ. ومدة تصدره للتدريس والفتوى ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين، وآخرها سنة إحدى وستين[٤١].

لقد كان الشيخ عبد القادر الجيلانى صاحب رسالة كبيرة ودعوة سامية فقد «رأى - الجيلانى ما أصيب به المسلمون من تشتت وافتراق وتناحر، وما استولى عليهم من حب الدنيا والتقاتل على الملك والجاه والسلطان، وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات، والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم، عاش الشيخ متصلا قبل ذلك بشعوره وآلامه، بعيدًا عن كل ذلك بقلبه وجسمه وانصرف بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والإرشاد والدعوة والتربية وإصلاح نفوس المسلمين، وتزكيتها، ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا والتكالب على حطامها ومناصبها إثارة للشعور الإيمانى، وتقوية عقيدة الآخرة، والتجافى عن دار الغرور»[٤٢].

ولقد اهتم الجيلانى بالإصلاح وتوجيه العباد «وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة لطيفة (بباب الأزج) ففوضت إليه، وضاقت مدرسته بالناس ومن ازدحامهم على مجلسه، فجلس للناس عند السور أيامًا، ثم

---

(٤٠) قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد التادفى الحنبلى ص ٣.

(٤١) قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد التادفى الحنبلى ص ٣.

(٤٢) كتاب الامام عبد القادر الجيلانى لأبى الحسن الندوى ص ٢٩.

وسعت بما أضيف إليها من المنازل والأمكنة التى حولها، وبذل الأغنياء فى عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء بها بأنفسهم، واكتملت المدرسة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وصارت منسوبة إليه»(٤٣).

وكان سيدى عبد القادر الجيلانى جريئا فى الحق «لما ولى المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين القاضى ابن المزاحم الظالم قال على المنبر: وليت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين، فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضى المذكور لوقته»(٤٤).

ومما يدل على شجاعته وجرأته فى الحق، قوله فى كتابه الفتح الربانى: «إنى أقول لكم الحق، ولا أخاف منكم ولا أرجوكم، أنتم أهل الأرض عندى كالبق والذر، لأنى أرى الضرر والنفع من الله عز وجل، - لا منكم -، المماليك والملوك عندى سواء»(٤٥).

وقال مخاطبًا تلك الفئة من العلماء الذين يداهنون السلاطين وينافقونهم: «أين أنتم وهم؟.» يقصد بهم العلماء الذين لا يخشون غير الله تعالى» -، يا خونة فى العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعى عباد الله عز وجل، أنتم فى ظلم ظاهر، ونفاق، إلى متى؟ - يا علماء، يا زهاد، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها لكم، أنتم وأكثر الملوك فى هذا الزمن ظلمة وخونة فى مال الله عز وجل، فى عباده، اللهم اكسر شوكة المنافقين، وخذ بهم أو تب عليهم واقمع الظلمة، وطهر الأرض منهم أو أصلحهم(٤٦).

وكان يدعو مريديه إلى العمل، ويؤكد أن الطريق ليس كلامًا، أو مهادنةً للحياة فالله يحب عباده العاملين «اعبدو الله عز وجل، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إن الله عز وجل يحب عبدًا مؤمنًا مطيعًا آكلًا من حلاله ويحب من يأكل ويعمل، ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه، ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق»(٤٧).

اتباعه السنة والشرع:

وكان يدعو أتباع طريقته القادرية إلى اتباع السنة والشرع، يقول لهم فى قوة: «اتباع الشرع موجب لسعادة الدارين، فاحذر الخروج من دائرته، وإياك أن تفارق الإجماع الشرعى، والاجتماع على أهل الله.. وأقرب الطرق إلى الله تعالى، لزوم قانون العبودية والاستمساك بأصول الشريعة وفروعها والاستقامة على الجادة(٤٨).

وكان رضى الله عنه يقول: تراءى لى نور عظيم ملأ الأفق، ثم تدلى منه صورة تناديني، يا عبد القادر.. أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات، فقلت: اخسأ يالعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك

---

(٤٣) كتاب الإمام عبد القادر الجيلانى لأبى الحسن الندوى ص ٩.

(٤٤) كتاب قلائد الجواهر ص ٧.

(٤٥) كتاب الفتح الربانى لسيدى عبد القادر الجيلانى. المجلس ٥١.

(٤٦، ٤٧) كتاب الفتح الربانى للإمام الجيلانى. المجلس الواحد والخمسون والمجلس السادس والأربعون على التوالى.

(٤٨) كتاب «بداية الطريق إلى مناهج التحقيق» ص ٤٨ للسيد محمد أبو الفيض المنوفى.

الصورة دخان، ثم خاطبنى يا عبد القادر نجوت منى بعلمك بأمر ربك، ووفقهك فى أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لله الفضل. فقيل له كيف علمت أنه شيطان؟ قال: لقوله قد حللت لك المحرمات[٤٩].

لقد كان الجيلانى بحق متسننًا عابدًا واعظًا قامعًا لنفسه ناصحًا لغيره صادقًا فى حاله مبغضًا للبدعة وأصحابها[٥٠] وهذا مما يجعلنا ندافع عن الإمام عبد القادر الجيلانى فيما نسب إليه من تهم يدحضها سلوكه وأقواله وأفعاله.

يقول صاحب ترياق المحبين: «أخبرنى الشيخ الزاهد العارف محمد بن عدنان المشهدى، عن الشيخ يوسف أبى زكريا العسقلانى الحنبلى، أنه سئل عن الشيخ محمد على بن إدريس اليعقوبى، أحد أركان طريق القوم، عن الذى يسمع فى هذه الأزمنة وينقل عن لسان الشيخ عبد القادر الجيلانى قدس الله سره، من الشطوحات والكلمات المشوبة بالعجب، والدعوى، والتجاوز، وغير ذلك، من الألفاظ التى يردها الشرع، مثل قولهم: إنه يقول: قال لى ربى: «يا غوث الأعظم أكل الفقير أكلى»... وقوله للخضر: إن كنت قلت لموسى: إنك لن تستطيع معى صبرا، فأنت لا تستطيع معى صبرا، وقوله: «أنا أحفظ مريدى فى غيبته وحضوره. ومريدى لا يدخل النار، ولو كان على سبيل مكروه إن كان مريدى رديا فأنا جيد»، وقوله: «قدمى على رقبة كل ولى»، وقوله: «للميت قم بإذنى» وأمثال ذلك، وأمثاله منه، وهل هذا صحيح وله وجه عند العارفين؟ فقام منزعجًا وجلس ثم قال: جلست مع الشيخ عبد القادر وأكلت معه، ونمت معه، وسافرت معه، وحضرت معه، فوالله ما رأيته تحرك بحركة، ولا سمعته تكلم بكلمة تخالف الشرع الشريف أبدا، الشيخ عبد القادر رجل عارف عابد زاهد خائف خاشع ذو مجاهدة وأوراد وأذكار، كثير البكاء، مخلص واعظ، عالم عامل، ورع، عامل بعلمه.. له وجود حال وذوق وكشوفات وكرامات وأحوال صالحة، وحرمة فى قلوب أهل الدين»[٥١].

ونحن نقول ما قلناه سابقا: إن سلوك الشيخ عبد القادر الجيلانى، وقوله يدلان على أن صاحب الطريقة القادرية، كان العابد الزاهد العامل بكتاب الله وسنة رسوله، إن الرجل الذى دعا إلى اتباع الشرع وسنة الرسول الكريم فى وصاياه المتعددة، يجعلنا نشك فيما نسب إليه من افتراءات وأقوال كاذبة.. فلقد كان للشيخ عبد القادر الجيلانى جهوده الطيبة فى إسلام كثير من يهود ونصارى العراق، وعلى يده الكريمة تاب الكثيرون من العاصين والمذنبين بفضل نصحه وإرشاده ودعواته الصادقة.

طريقة سيدى عبد القادر الجيلانى ومبناها:

يقول الشيخ على بن الهيتى رضى الله عنه: عن الشيخ عبد القادر الجيلانى «كان قدمه على

---

(٤٩) طبقات الشعرانى ص ١٠٩.

(٥٠) كتاب أبو الحسن الشاذلى للأستاذ سالم عمار ص ١٣٠.

(٥١) ترياق المحبين ص ٥٥.

التفويض والموافقة مع التبرى من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد، وتوحيد التفريد مع الحضور فى موقف العبودية، لا بشىء ولا لشىء»(٥٢).

وكان الشيخ عدى بن مسافر رضى الله عنه يقول: كان الشيخ عبد القادر الجيلانى - رضى الله عنه - طريقته: الذبول تحت مجارى الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر. والقرب والبعد(٥٣).

ويقول صاحب مخطوطة السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين(٥٤) ومبنى الطريقة القادرية على الذكر الجهرى، فى حلقة الاجتماع، والرياضة الشاقة فى العكفة بالتدريج فى تقليل الأكل، والفرار من الخلق وسلوكهم مصحوب فى البداية باستحضار جلال الله وعظمته، بذلك تنقمع النفس وتتهذب، لأن التربية بالجلال أسرع للتخلص من الرعونات، وصفة الجلوس للذكر، أن يجلس متربعا ويمسك بإبهام الرجل اليمين، مع ما يليه من العرق المسمى (بالكيماس) وهو العرق العظيم الذى هو فى جوف قفل الركبة، ويضع يديه على ركبتيه فاتحا أصابعها بنقش لفظ الام، ويذكر باللام ويلازمها مدة حتى ينشرح صدره، ويكاشف بالأنوار الإلهية، ثم يشتغل بذكر أوراد برادى (أى ذكر الغناء والبناء المنسوب إلى الشيخ عبد القادر). وهو أن يجلس كما مر ويدير وجهه جانب الكتف الأيمن قائلا هاء ويدير وجهه إلى الأيسر قائلا: هو، ويحتضن رأسه ضاربا فى نفسه بقوله: حى. وتعود إلى العمل بلا توان.

كيفية الانتساب للطريقة القادرية(٥٥):

ويقول الجيلانى: «فالذى يجب على المبتدئ فى هذه الطريقة، الاعتقاد الصحيح الذى هو الأساس، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة، سنة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء، والصديقين، فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرًا ونهيا، أصلًا وفرعًا، فيجعلهما جناحيه يطير بهما فى الطريق الواصل إلى الله عز وجل، ثم الصدق، ثم الاجتهاد، حتى يجد الهداية والإرشاد إليه إضافة إلى هذين الأصليين الشريفين، يضع الجيلانى قواعد يعتبرها مكملة، ولو أنها فى حقيقتها مستمدة من الشرع، وهى كما يرى الجيلانى «سلامة الصدور، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه؛ وبذل الندى، وكف الأذى، والفقر، وحفظ حرمة المشايخ والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة، والإسفاف، وملازمة الإيثار وملازمة الأخيار، وترك صحبة ما ليس من طبقتهم، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا» هذا من حيث الاعتقاد والإيمان والعمل.

أما عن كيفية الانتساب للطريقة القادرية فإن كل سالك للطريقة القادرية عليه أن يمر بمرحلتين.

---

(٥٢) طبقات الشعرانى جـ١ ص ١١٠.

(٥٣) طبقات الشعرانى جـ١ص ١١٠.

(٥٤) مخطوط «السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين» للادريسى٥ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تصوف ورقة ١٥.

(٥٥) اعتمدنا فى عرض كيفية الانتساب إلى الطريقة القادرية على «عبد القادر الجيلانى ومذهبه الصوفى» رسالة ماجستير لجعفر صادق سهيل من ص ١٢٧ ومابعدها.

١ - **أولاهما** مرحلة الابتداء: تبدأ وتنتهى بجلسة واحدة، قد تستغرق أقل من نصف ساعة على الأكثر، إذا كان العمل فيها جديًّا، ولهذه المرحلة مراتب، نذكرها كالآتى:

أولًا - اللقاء الأول: ويكون بين المريد وبين الشيخ، ويتضمن العهد والاستغفار، والتوبة، والطاعة، والذكر.

والعهد من الأمور المهمة فى الطريقة القادرية، والعهد بالنسبة للسالك لا يتم إلا على يد شيخ معترف له بالمشيخة، ومجاز بالتربية الصوفية، واللقاء بأخذ الخطوات التالية:

١ - قبل البدء يصلى المريد ركعتين نفلًا لله تعالى، وقراءة الفاتحة للنبى ﷺ ولإخوانه المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٢ - حضور المريد بعد الصلاة والفاتحة بين يدى الشيخ، وجلوسه تجاهه لاصقًا ركبتيه اليمنى بيد الشيخ اليمنى، وفى هذه الحالة يطلب الشيخ من المريد الاستغفار، ويكون بالصيغة التالية «قل استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأشهد الله وملائكته ورسله وأنبياءه بأنى تائب لله، منيب إليه، وأن الطاعة تجمعنا، وأن المعصية تفرقنا، وأن العهد عهد رسوله، وأن اليد يد شيخنا وأستاذنا الشيخ محيى الدين عبدالقادر الجيلانى قدس سره، وعلى ذلك أحل الحلال - أى أعمل به - وأحرم الحرام - أى أتجنبه - وألازم الذكر والطاعة بقدر الاستطاعة، ورضيت بحضرة شيخنا المشار إليه شيخًا لى وطريقته لى، والله على ما أقول وكيل».

والذكر الذى ورد فى صيغة العهد يكون بالتلقين.

والمقصود بالذكر: هو التوحيد «لا إله إلا الله»، ويقوم الشيخ بتلقينه للمريد ثلاث مرات، وهو مغمض العينين.

وكذلك العهد يكون بالتلقين، أى أن الشيخ يقول: عبارات العهد، والمريد يرددها بعده مباشرة، وبعد الانتهاء من ترديد عبارات العهد، يقول الشيخ «انفحنا بنفحة منك»، ثم يقرأ آية المبايعة: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا**﴾*.

وبعد هذا يسمع الشيخ كلمة التوحيد لمريده مردِّدًا إياها ثلاث مرات، ويطلب منه أن يقولها بعده على الصورة التالية: يأخذ الشيخ كلمة «لا» أولًا من طرفه الأيمن مادًّا بها جبهته فى «إله»، ثم يقرأ «إلا الله» من طرفه الأيسر، وهو عهد الروح، هذه الحالة تتم والشيخ مغمض العينين، فإذا قالها المريد بعد الشيخ قولًا صحيحًا، وطبق الأصل يكون قد انتهى من أخذ العهد تمامًا.

ثانيًا - وهى جملة أشياء يومئ بها الشيخ لمريده مطالبًا إياه اتباعها، والعمل بمضمونها، وهى تحمل الأدى، وترك الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان وبذل الكف وسخاء النفس، وترك الحقد، والحسد

---

* سورة الفتح آية ١٠.

والكذب والنميمة والفحش فى الكلام والاستقامة على الوضوء، وعلى الاستغفار، والصلاة على النبى ﷺ من غير تعيين عدد.

وبعد أن يقبل المريد هذه الوصايا من شيخه ينتقل الشيخ إلى مرحلة المبايعة والقبول.

ثالثًا - **المبايعة والقبول**: يقول الشيخ للمريد القابل: (وأنا قبلتك ولدًا وبايعتك على هذا المنوال) وكذلك بالنسبة للمريد.

بهذه المراسيم تنتهى المبايعة بعد القبول، فتنفصل الأيدى المتشابكة وتبتعد الركب المتلاصقة، ثم تأتى مرحلة الدعاء مختومة بشرب الكأس.

رابعًا - **الدعاء**٩ الذى يصدر من الشيخ ويكون بحضور المريد وأمامه، والدعاء يكون على صورتين:

- الصورة الأولى يكون فيها عامًا تامًا شاملًا ويكون بالصيغة التالية (اللهم اجعلنا مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، وعدوًا لأعدائك، محبّين بحبك من أحبك، ونعادى بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء لك وعليك الإجابة، وهذا الجهد، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم).

- الصورة الثانية: يكون الدعاء فيها خاصا بالمريد، وهذه صيغته:

(اللهم كن برًا رحيمًا، جوادًا كريمًا. اللهم دله بك إليك، اللهم خذه منه، اللهم افتح عليه فتوح الأنبياء والأولياء بجودك ورحمتك وكرمك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين آمين).

خامسًا - **الكأس**: وهو إناء يتناوله الشيخ محتويًا على ماء قراح وقد يكون ممزوجًا بسكر، وقد يقرأ الشيخ على الكأس قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾* ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** ثم يتلو ذلك قراءة الفاتحة والإخلاص ثلاث مرات، ويناول الكأس للمريد ليشربه.

على هذا النمط المتدرج تنتهى المرحلة الأولى، فيصبح المريد فى عداد المريدين، ويلزم شيخه الذى أخذ عنه العهد، فيكون طالبًا مرتبطًا بالشيخ.

٢ - **ثانيتهما**:

وهى التى تكون فيها الرحلة إلى الله عز وجل حيث يصاحب الشيخ المريد مجتازًا جميع المسالك.

وهذه المرحلة تختلف تمام الاختلاف عن المرحلة الأولى بطبيعتها، فإذا كانت الأولى تبدأ وتنتهى بجلسة واحدة، فالثانية قد يمتد بها الزمن سنين طوالًا؛ لأنها مرحلة دراسية يتلقى فيها المريد، علم

* سورة يس آية ٥٨.

** سورة الإسراء آية ٨٢.

الحقيقة عن شيخه، ويتأدب به، ممتثلاً لأوامره، ومنهيًا لنواهيه، آخذًا نفسه بالمجاهدة، وأشد الرياضات، تحت إشراف الشيخ، وهكذا حتى يفتح الله عز وجل عليه فتوح الأنبياء والأولياء.

ويرى الشيخ الجيلانى فى هذه المرحلة أنه: (على المريد عدم الانقطاع عن شيخه الموجه له) (إنما يلزمه بدوام الاتصال حتى يستغنى عنه بالوصول إلى ربه عز وجل فيتولاه بعد ذلك الله تبارك وتعالى بتربيته وتهذيبه، فيستغنى بربه عن غيره).

وعند تحقق الانفصال بين الشيخ والمريد، يمنح المريد إجازة المشيخة، وتكون خطية تشهد له بلوغ مراده، فيكون شيخًا فى عداد الشيوخ، ومن شروط الإجازة: أن تكون موقعة من قبل المجيز، مبينًا فيها تلقيه كلمة التوحيد للمريد، مما تلقاها هو، بالتلقين بالسند عن شيخه، وشيخه عن شيخه، مستمرا بذكر سلسلة الشيوخ، حتى يصل إلى الشيخ منشئ الطريقة، ومنه حتى يصل إلى الحسن البصرى، عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن الله سبحانه وتعالى.

ويختم الشيخ الإجازة بدعاء: هو «اللهم بجاه هذه الشجرة المباركة متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم فى الآخرة بعد حسن الختام فى هذه الدار بسلام».

ومن الملاحظ أن الانقطاع بين الشيخ وبين المريد أمر لابد منه، فقد أكد عليه السيد الشيخ الجيلانى، وهو عنده إما انقطاع نهائى، وإما انقطاع.. يتخلله اتصال عن طريق الصدفة، كالملاقاة فى الطريق، أو فى جامع قدرًا، ومن غير قصد، وذلك حفظًا للحال، واستغناء بالرب يقول الجيلانى: (فإذا بلغ المريد حالة شيخه أفرد عن الشيخ وقطع عنه فيتولاه الحق عز وجل).

ومن هنا فالملاحظ أن الصفة الغالبة على الطريقة القادرية، هى المرونة، فالجيلانى يرى: باختلاف الطريق بين الشيخ وبين المريد الذى وصل إلى مرتبة الشيخ بعد افتراقهما، وليس فى رأيه الإصرار على أن يبقى المريد تابعًا طبقة شيخه بل نجد عنده التأكيد على استقلال الذات، فشخصية المريد يجب أن تبرز فتأخذ طابعًا خاصًا بها فدور الشيخ المربى قد انتهى عند حد بدأ معه المريد مستقلاً، فلابد له فى هذه الحالة أن يظهر شخصيته ويثبت استقلاله.

خـــاتمـة

هذه هى الطريقة القادرية ومبناها، ولقد رأينا صاحبها سيدى عبد القادر الجيلانى من خلال هذه النظرة السريعة، رجلاً أسلم وجهه لله. وربى رجالاً دعاهم إلى طريق الله والسير على هدى القرآن والسنة.

لكن كعادة الأستاذ الفاضل الدكتور الشيبى – رد كل فكر إسلامى إلى الشيعة، فإنه يرى أن هناك تشيعًا فى طريقة الجيلانى فيقول: «فقد جعل عبد القادر الجيلانى المشيخة وراثية كالإمامة، فورث شأنه وطريقته أبناءه عبد الوهاب، وعبد العزيز، وعبد الجبار[٥٦]، لكنا نرى أن رأى الأستاذ الدكتور الشيبى فيه مغالاة شديدة، فظاهر أقوال الجيلانى وأفعاله تجعلنا نحكم عليه بأنه كان صوفيًّا سنيًّا متشرعًا متحققًا، منهجه الصوفى هو المنهاج الخلقى العملى المترسم كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

(٥٦) الصلة بين التصوف والتشيع للأستاذ الدكتور الشيبى ص ٨٠ نقلاً عن روضات الجنات ص ٤٤٢.

obeikandl.com

دور صوفية المغرب والعراق
فى حركة الطرق الصوفية فى مصر

١ - أبو مدين التلمسانى:

ذكرنا سابقا ملحوظة هامة، وهى أنه إذا كان للرفاعى والجيلانى دورهما الهام فى نشر حركة الطرق الصوفية فى كل مكان، فقد كانت هناك أيضا شخصيات صوفية هامة لعبت دورًا بارزًا فى (مسح) طرق الصوفية فى مصر وحركتها.

ولقد كانت هذه الشخصيات وراء دفع ونمو حركة الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى بطريق مباشر وغير مباشر.. وأعنى بهذه الشخصيات أبا مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش، وأبا الفتح الواسطى، والدليل على وجود هذا الدور، يكفى أن نعلم مثلا أن أبا مدين التلمسانى (ت ٥٩٤ هـ) هو أستاذ عبد الرازق الجزولى، والجزولى هو شيخ ومعلم عبد الرحيم القنائى، وأبى الحجاج الأقصرى، كما أن أبا مدين التلمسانى أستاذ وشيخ عبد السلام بن مشيش، أستاذ ومربى أبو الحسن الشاذلى شيخ الطريقة الشاذلية.

وقد التقى أبو مدين التلمسانى بسيدى عبد القادر الجيلانى، أثناء الحج، وأثر كل منهما فى الآخر، ثم أم سيدى أحمد البدوى حفيدة أبى مدين. يقول عبد الصمد زين (كان اسم والدته فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبدالله بن مدين بن شعيب المدينة[١].

وبالطبع فإن ذلك يجرنا إلى إلقاء الضوء على هذه الشخصية الصوفية الكبيرة التى كان لها دورها فى حركة الطرق الصوفية... فمن هو أبو مدين شعيب التلمسانى، أو من هذه الشخصيات الثلاث التى كان لها دورها فى حركة الطرق الصوفية.

أبو مدين التلمسانى: (أحد كبار الصوفية، ولد فى قطينانة إحدى القرى قرب أشبيلية، توفى فى عام ٥٩٤ هـ، ودفن بالعباد بقرب تلمسان، أحس أبو مدين بميل نحو العلم، فأقبل عليه بحماس زائد، فنزح عن وطنه إلى فاس بالمغرب، ليأخذ عن علماء من المغاربة جذبتهم إليه شهرتهم، وساقه فى هذا الطريق الشيخ أبو يعزى، الذى بلغ به مرتبة الصوفى الكامل بالصيام والصلاة والتقشف المتواصل الشديد[٢]، والشيخ أبو يعزى أستاذ أبى مدين التلمسانى من كبار الصوفية (وكان الناس يفدون إليه

---

(١) الجواهر الصمدانية: لعبد الصمد زين الدين ص ٣٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مادة أبو مدين التلمسانى ص ٣٩٩ إلى ص ٤٠١.

من جميع أنحاء المغرب، والأندلس، يأخذون عنه ويستمعون إليه، ويلتمسون منه البركات، وفى مقدمة من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمسانى فعاش معه سنين، يقتبس من طريقته بالإقبال كل الإقبال على الصوم، والزهد، والصلاة، والتقشف، والعبادة، حتى إذا قبس قبسة من روح أستاذه (أبو يعزى) رحل إلى المشرق ليقتبس قبسات أخريات من شيوخ التصوف هناك، وعن سيدى عبد القادر الجيلانى قطب العراق بوجه خاص)[٣].

وهكذا بعد أن قضى أبو مدين التلمسانى عدة سنوات بمدينة فاس، تركها إلى الشرق، وانتقل إلى مكة، حيث قابل هناك الشيخ عبد القادر الجيلانى (فارتبط به بصلات الود وأتم بإرشاده علومه الصوفية)[٤].

وقد وصف عبد الرازق بن عبد القادر الجيلانى هذا اللقاء فقال: (لما حج والدى رحمه الله تعالى فى السنة التى كنت معه فيها، اجتمع به فى عرفات الشيخان: ابن مرزوق وأبو مدين، ولبسا منه خرقة بركة، وسمعا عليه جزءًا من مروياته وجلسا، بين يديه[٥]، وبعد عودة التلمسانى من مكة اتجه إلى تعليم الطريقة الصوفية ببلاد المغرب.

ومن أبرز تلاميذه الشيخ عبد الرازق الجزولى، أستاذ الشيخ عبد الرحيم القناوى، وأيضا عبد السلام بن مشيش ومحيى الدين بن عربى.

ومن أهم تعاليمه لأصحابه قوله لهم: (أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصى، ولا يستحون من الله، وكان يقول فى قوله تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾* الآية، من الأكوان فانصب قلبك لمشاهدة الرحمن، وإلى ربك فارغب فى الدوام، وإذا دخلت فى عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها، وقل «يا ليتها كانت القاضية».

وقال محيى الدين بن عربى: «وكان شيخنا أبو مدين قد ترك الحرف، وجلس مع الله تعالى على ما يفتح عليه، وكان على طريقة عجيبة مع الله فى ذلك الجلوس، فإنه ما كان يرد شيئا يؤتى به إليه، كالشيخ عبد القادر الجيلانى، لكن عبد القادر كان أنهض فى الظاهر لما يعطيه المشرف[٦]، وقد سئل أبو مدين: «لم لا تحترف؟ أو لم لا تقول بالحرفة؟ قال: أقول بها، فقيل له لم لا تحترف؟ فقال: الضيف عندكم إذا نزل القوم، كم توقيت زمن وجوب ضيافته؟ قالوا: ثلاثة أيام.. وبعدها، قالوا: يحترف، قال: الله أكبر. أنصفونا.. نحن أضياف ربنا، نزلنا عليه فى حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد، فتعينت الضيافة، فإنه تعالى ما دل على خلق كريم لعبده إلا كان هو أولى بالاتصاف به، وأيام

---

(٣) كتاب أعلام الإسكندرية للدكتور الشيال ص ١٦٤.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: مادة أبو مدين التلمسانى ص ٤٠١.

(٥) قلائد الجواهر للتادفى ص ٦٠.

* سورة الشرح آية (٧).

(٦) مخطوط الكواكب الدرية للمناوى ورقة ٢٧٢.

ربنا كما قال كل يوم كألف سنة مما تعدون، فضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة وانقضت ولا نحترف توجه اعتراضكم علينا، ونحن نموت وتنقضى الدنيا ويبقى لنا فضلة (أى بقية) عنده تعالى من ضيافتنا فاستحسنه المعترض »(٧).

يقول عنه صاحب قلائد الجواهر: له (أبو مدين) القدم الراسخ فى التمكين والباع الطويل فى التصريف، واليد البيضاء فى أحكام الولاية، والقوة الشديدة فى أحوال النهاية، وهو أحد أوتاد المغرب، وأحد أركان هذا الشأن.. وهو أحد من جمع الله له بين علم الشريعة والحقيقة، وأفتى ببلاد المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وتخرج بصحبة غير واحد من مشايخ الغرب مثل الشيخ عبد الرحمن بن حجون المغربى، والشيخ محمد بن أحمد القرشى، والشيخ عبد الله القشتانى الفاسى، والشيخ صالح الزكالى(٨).

وقد أسس أبو مدين طريقته المدنية، وهى لازالت قائمة حتى الآن «ومبنى هذه الطريقة على الجهر بذكر الجلالة (كالطريقة القادرية)، وكان إمام هذه الطريقة سيدنا أبو مدين، يعلن بالصدقة ويذكر الله فى الملأ، وكان يقول: «قل الله ثم ذرهم أفغير الله تدعون»، ومن شأن (مريدى) هذه (الطريقة)، عدم التوقف فى الملبس والمأكل على خشن أو غيره، بل يقبلون ما يأتيهم من غير سؤال ولا استشراف نَفْس، ويقدمون أكل اللذيذ على غيره إلا أن يكون مضرا بالمزاج، وهذا لغير المبتدئ، أما السالك فينبغى له الأخذ بالأشد على نفسه، ومن آدابهم صلاة ركعتين نفلا بعد الأكل، والاشتغال بقراءة سورة الملك، ويدخلون الخلوة بالذكر الوارد (لا إله إلا الله لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) ومن شأنهم كغيرهم اتخاذ سبحة للذكر(٩).

ويمكن أن نلخص تعاليم أبى مدين كلها فى هذا البيت الذى كان يردده دائما كما يقول: يحيى بن خلدون:

الله قل: وذر الوجود وماحوى إن كنت مرتادا بصدق مراد

وبهذا المبدأ وصل أبو مدين بأتباعه إلى أقصى مراتب الصوفية فتجردت نفسه التجرد كله، واتحد بالله. الذى كان يدعوه إلى آخر نسمة من حياته لقوله: (الله ، الحق). اتحادا تاما(١٠).

هذا هو الرجل الذى أخذ منه ابن مشيش أستاذ الشاذلى، وأخذ منه أيضا الجزولى أستاذ القنائى والأقصرى، ومن ذلك نستطيع أن نتحسس أصابع وبصمات التلمسانى، ودوره فى حركة الطرق الصوفية بمصر.

وقد مات سنة ٥٩٤ هـ وكان يحكم المغرب فى أخريات حياة أبى مدين الخليفة أبو يوسف

---

(٧) المرجع السابق ظهر الورقة ٢٠٤.

(٨) قلائد الجواهر للتادفى ص ١٣٥.

(٩) مخطوط سلسبيل الطرائق للسنوسى ورقة ١٦.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية: مادة أبو مدين التلمسانى ص ٤٠١ والبيت من الكامل.

يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذى اضطهد العلماء والفلاسفة ورجال الفكر، وأصابتهم فى عهده محن شديدة، فاتهم ابن رشد فى عهده بالزندقة، وحوكم فى سنة ٥٩١ هـ، واضطهد الصوفى الكبير أبو مدين وأرسل الخليفة يستدعيه من بجاية لمحاكمته، فأتى به مكبلا بالحديد، حتى إذا وصل تلمسان مرض ومات سنة ٥٩٤ هـ(١١).

٢ - عبد السلام بن مشيش:

أما الشخصية الثانية التى نستشعر دورها فى حركة الطرق الصوفية بمصر فى القرن السابع الهجرى، فهى شخصية الصوفى الكبير الشيخ عبد السلام بن مشيش، أستاذ الشاذلى الذى كان يفخر أبو الحسن بتلمذته عليه والذى قال فيه ابن عياد فى المفاخر العلية نقلا عن محيى الدين عبد القادر بن الحسن الشاذلى صاحب كتاب الكواكب الزاهرة (مقام ابن مشيش بالمغرب كالشافعى بمصر)(١٢).

يقول الشاذلى رضى الله عنه، عن قصة اجتماعه، وتعرفه بابن مشيش: إنه لما دخل العراق اجتمع بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى، فما رأينا بالعراق مثله، وكان بالعراق شيوخ كثيرة. وكنت أبحث عن القطب، فقال لى الشيخ أبو الفتح أتطلب القطب بالعراق وهو فى بلادك المغرب، ارجع فإنك تجد القطب هناك، فلما رجع اجتمع بأستاذه قطب الشيخ عبد السلام بن مشيش.

وفى صحبة أستاذه، أقبل الشاذلى على العبادة (فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الإقبال على الخلق، وأقبل على حب الله، وفنى فى حبه، فلما صفت نفسه وأصبح أهلاً للولاية ووراثة القطبانية، أمره أستاذه أن يرحل عن فاس إلى تونس، وتنبأ له بما سيحدث له فى مستقبل أيامه)(١٣).

ومن وصايا ابن مشيش للشاذلى: (الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت، ومن دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى وأكدت، وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن على الشراب والمحبة وكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتى يكون سكرك به، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كماله وجلاله)(١٤).

وقال ابن مشيش أيضا: (أفضل الأعمال: أربعة بعد أربعة. المحبة لله. والرضا بقضاء الله، والزهد فى الدنيا، والتوكل على الله، هذه أربعة وأما الأربعة الأخرى فالقيام بفرائض الله، والاجتناب لمحارم الله، والصبر على ما لا يعنى، والورع من كل شىء يلهى)(١٥).

---

(١١) أعلام الإسكندرية للمرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ص ١٠٤.

(١٢) المفاخر العلية لابن عياد ص ١٣.

(١٣) أعلام الإسكندرية للدكتور الشيال ص ١٦٩.

(١٤) أبو الحسن الشاذلى: لعلى سالم عمار جـ ١ ص ٨١، ٨٢ على التوالى.

(١٥) المصدر السابق.

هذه إشارة سريعة لابن مشيش أستاذ الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية الكبيرة بمصر، وقد قلنا إن ابن مشيش لبس الخرقة من أبي مدين التلمسانى، ومن ناحية أخرى نرى بصمات الإمام الرفاعى فى تسلك ابن مشيش مربى الشاذلى فقد تسلك ابن مشيش (على يد السيد الإمام برى الحسينى أحد أصحاب سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنهم أجمعين) ثم لا ننسى، أن أبا الفتح الواسطى تلميذ الرفاعى الكبير، هو الذى نصح الشاذلى بالذهاب إلى القطب الكبير عبد السلام بن مشيش.

٣ - أبو الفتح الواسطى:

أثر الواسطى فى ظهور وانتشار الطرق الصوفية بمصر تأثيرًا كبيرًا للغاية. فقبل أن يفد الشاذلى إلى مصر، أو البدوى، قدم هو إلى الإسكندرية وبشر بالطريقة الرفاعية ومهد لها الطريق فى مصر، وأخذ عنه خلائق لا يحصون: منهم الشيخ عبد السلام القليبى، والشيخ عبدالله البلتاجى، والشيخ بهرام الدميرى، والشيخ جامع الفضلين الدنوشرى، والشيخ عبد الوهاب، والشيخ عبد العزيز الدرينى والشيخ على المليجى(١٦).

وقد توفى الواسطى بالإسكندرية حوالى ٦٣٢ هـ، وحسبنا «أن نعلم أنه لما وصل خبر وفاته إلى خلفاء الرفاعى بالعراق (مركز الدعوة والطريقة الرفاعية) وقع اختيارهم على السيد أحمد البدوى ليخلفه فى زعامة الإخوان، وأتباع الرفاعى بمصر، فوصل السيد البدوى مبعوثا من المدرسة الرفاعية إلى الإسكندرية سنة ٦٣٥ هـ، وفى هذا تقدير كبير لمركز الواسطى ومكانته»(١٧).

وجدير بالذكر أن السيدة فاطمة أم سيدى إبراهيم الدسوقى ابنة أبى الفتح الواسطى الذى لعب دورا كبيرا فى التخطيط لإقامة الطرق الصوفية بمصر.

ويبدو لنا أن أبا الفتح الواسطى قد تصور إن لم يكن قد خطط لأن يكون حفيده سيدى إبراهيم الدسوقى شيخًا كبيرًا كشيخه الأكبر أحمد الرفاعى.

من ذلك كله، ومن خلال عرضنا السريع لهذه الشخصيات الصوفية الكبيرة نستطيع أن نقول: إن البصمات المغربية والعراقية واضحة فى نشأة الطرق الصوفية فى مصر، ومن هنا أيضا فأننا نلاحظ أن أصحاب الطرق الصوفية فى مصر جلهم، إن لم يكن كلهم من أصل مغربى أو عراقى فلم يكن هناك طرق صوفية محلية خالصة، فحتى سيدى إبراهيم الدسوقى الذى ولد وعاش فى دسوق مصر حفيد أبى الفتح الواسطى تلميذ الرفاعى العراقى.

ومن العجيب أن والد الرفاعى قبل أن يطأ العراق مهاجرا، عاش وعاشت أجداده من قبل فى المغرب.

---

(١٦) كشف النقاب للطبرى ص ١٤ بتصرف. النص هكذا (ابن مشيش تسلك على يد الإمام الحسينى صاحب سلمية أحمد الأعيان من أصحاب إمام الطوائف السيد أحمد الكبير الرفاعى رضى الله عنهم أجمعين). طبقات الشعرانى جـ ١ ص ١٧٦.

(١٧) أبو الحسن الشاذلى لعلى سالم عمار جـ ١ ص ٧٧.

والذى لا شك فيه عندنا أن أبا الفتح الواسطى، وأبا مدين التلمسانى وعبد السلام بن مشيش، كانوا لهم الأثر فى بذر حركة الطرق الصوفية ونموها وازدهارها فى مصر، وانطلاقها فيها فى القرن السابع الهجرى، وهذا ما يؤدى بنا إلى ضرورة إلقاء صورة سريعة لوجه مصر فى هذا القرن، ذلك أن هذا القرن - كما سنبين فيما بعد - كان قرن التصوف والطرق الصوفية فى مصر، ففيه ازدهرت حركة الطرق فى مصر ازدهارًا كبيرًا، وفيه ظهر أهم أعلام الطرق الصوفية.

ولعل فى إلقاء الضوء على نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمصر فى هذا القرن، يكشف لنا عن سر ازدهار تصوف الطرق الصوفية فى مصر منذ القرن السابع الهجرى، والقرون التالية له.

obeikandl.com